الجهاز

– ليس الآن .. ليس الآن .. سأكلمك لاحقًا.

أغلق عدنان هاتفه المحمول وقذف به في حقيبته السوداء وأغلق سوستتها سريعًا وهو يتلفت يمينًا ويسارًا في ترقب وقلق، حاول أن يتمالك أعصابه، قال لنفسه يطمئنها: إنها ليست المرة الأولى، لكنَّه تذكَّر أنَّ الحكومة اشترت مؤخرًا أجهزة حديثة، من اليابان هذه المرة، وأنها قادرة على كشف المستور مِنْ بُعْدِ مائة متر، امتقع لونه، وأحس أنَّ أمره سيفتضح، رأى نفسه يقف أمام ضابط الكمين متوسلا أنْ يأخذ ما معه ويتركه، لا يريد أن يدخل السجن، لديه بنتان جميلتان نظرتهما البريئة تنسيان هموم الدنيا، أو كانت تنسيان هموم الدنيا، قبل أن يحل هذا البلاء الذي ينسي كلَّ نعمة، هو يحبُّهما كثيرًا ويخاف أنْ تأكلهما الحياة إن غُيِّب عنهما خلف القضبان.

مشى في حذر، همَّ أنْ يحتضن الحقيبة، لكنَّه شعر أنَّ منظره كاف للشك فيه، سيكون الأمر على ما يرام، سأمضي في طريقي ولن يوقفني أحد، غالبا ما تخِفُّ المراقبة في هذا الوقت .. مشى

بخطوات حاول أن تكون ثابتة، فكَّر أنْ يشغل نفسه بمتابعة مَنْ حوله، رأى الترقب في عيون الناس جميعًا، بعضهم يضع قبضتيه في جيبي سراويله وكأنه يمسك طائرًا يخشى فراره، وبعضهم يضم معطفه كأن درجة الحرارة قد هبطت إلى ما دون الصفر، سقط فجأة حين هوت قدمه في حفرة على الرصيف، منذ شهور والطرق تمتلئ بالحفر، أحجار الأرصفة تخلع من أماكنها، الأسفلت يتكسر، أصبح المشي في طرقات المدينة أشبه بالحركات البهلوانية، التوت قدمه فتألم بشدة، لكنه تحامل حتى وقف وأخذ ينفض التراب عن ثيابه، مشى مشية عرجاء بطيئة، فلعن حفر الطريق التي جعلته يبدو لافتا للأنظار، راوده شعور بالبكاء، استحال إلى غصة في حلقه، أراد أن يصرخ بأعلى صوت: كفاكم ظلما وبطشا ونهبا وسلبًا، نحن أحرار ولسنا عبيدًا، استبحتم كل شيء، ما عاد لنا فيها معاش.

أحسَّ بكفٍّ غليظة تمسك بكتفه، ارتعدت فرائصه وهو يلتفت رويدًا لينظر إلى صاحبها، دارت رأسه وكاد يهوي مرة أخرى حين لمح كمه الأسود، لكن الرجل أسنده إليه حتى استقرت قدماه.

– ما بك يا رجل؟ تكاد تقع وأنت سائر، هل أنت مريض؟

استدار بنصفه الأعلى ليتأمل محدثه، رأى رجلا في عقده الرابع، طويل القامة متين البنيان، يرتدي قميصا أسود اللون، اطمأنَّ عندما دخل في حيز إدراكه، وسروالا من الجينز الأزرق الداكن، زاد في اطمئنانه، فقال له وهو يحدق في عينيه الرماديتين:

– لقد التوت قدمي ..

– هل أساعدك بشيء؟

– شكرا لك، أسير على مهل .. والبيت قريب .. شكرا لك.

– انتبه وأنت سائر .. خذ حذرك.

أقلقته العبارة الأخيرة، شعر أنها تهديد لا تحذير، (خذ حذرك) ترى ماذا يقصد؟! أيكون هذا الرجل مخبرًا يريد أن يستكشف رد فعلي؟! ولكنْ ما حاجتهم إلى المخبرين بعد الأجهزة الجديدة؟

تابع سيره في تؤدة، كان يسير في الشارع الأكبر الذي يمتد لأكثر من عشرين كيلو متر، ويقسم المدينة إلى قسمين كبيرين، قسمين لا نصفين، فأحدهما أقل من ضِعْف الآخر بشيء يسير، القسم الشرقيّ الأصغر مساحةً يعجُّ بمعظم سكان المدينة، تتطاول فيه الأبنية المتلاصقة، تتكدس الأجساد، تنحشر في مواسير الماء والمجاري وأسلاك الكهرباء والطرق الملتوية

المتكسرة، ينتمي إليه معظم السكان، أما الجانب الآخر، الغربي، فهو جنة السادة والأثرياء والمتسلقين، حيث السعة والرخاء واللين في كل شيء.

شعر أنَّه قد اقترب من البيت، وبدأ الاطمئنان يسري في فؤاده فيهدأ وجيب أنفاسه المضطربة، أرسل يده ممسكةً بالحقيبة السوداء، وارتخت عنها قبضته شيئا يسيرًا، انعطف يمينًا داخلا في شارعٍ جانبي ضيق، منزله في آخر الشارع، علته ابتسامة نصر، نظر إلى أعلى وأخذ يتذكر ما تحتاجه ابنتاه من ملابس وأدوات للمدرسة، سيشتري لزوجته هاتفا محمولا حتى يطمئنَّ كلٌّ منهما على صاحبه وقتما شاء، وسيحضر لهن الطعام الذي اشتهينه ولو لمرة واحدة.

فجأة قطعه صفيرٌ حادٌّ، تلفت يمينًا ويسارًا فلم ير شيئًا، أخذ يسرع في خطواته ولكنَّ الصفير يعلو، لم يشأ أن ينظر خلفه، ومن خلفه أمسكته يد غليظة سوداء، توقف من فوره، والتفت وبُحَيرَةُ آماله تتبخر من حرارة اليأس، واجه من اعترضه، واضعًا يده على أذنه من حدة الصوت، لكنه سمعه وهو يصيح به:

– أخرج ما معك من أموال.

– إنها أموالي.

نظر الرجل في شاشة الجهاز الذي يحمله وقال بصوت أجش:

– ليس لك الحق في أن تحمل كل هذه الأموال.

– وهل الجهاز يخبرك بمقدار ما معي؟!

– أجل، يخبرني بما في جيبك وما في حقيبتك من نقود ويحسبها بدقة، لا تستطيع أن تخفي منها شيئا.

– ولكنه مالي، بعت آخر قطعة أرض ورثتها، وهذا ثمنها.

– المال الذي معك أكثر مما يسمح به القانون.

– لكنني أدفع الضرائب.

– القضية ليست مجرد ضرائب.

– أوليس من حقي أن أسد بعض احتياجاتي.

– القانون راعى احتياجاتك، ما تريده من باب الرفاهية.

– أوليس من حقي وحق أسرتي شيء من الرفاهية؟!

– لا .. الرفاهية تفسدك.

– ولو لمرة واحدة؟!

– نحن أولى بهذه الأموال الفائضة عن حاجات الناس.

– لكنَّ هذا ظلم، لا يحق لكم أن تستولوا على أموال الناس بالقوة.

صفعه الرجل الغليظ صفعة قوية وقال بصوته الأجش:

– أنت لا تحترم القانون، وهذه جريمة أخرى.

– وهل هناك جريمة أولى؟

– حيازتك لأموال فوق الحد المسموح به جريمة.

– أنا أحترم القانون، ولكنْ مِنْ واجب القانون أيضًا أن يحترمني.

صفعة أخرى هوت على وجهه، تلقاها وهو يسمع صراخ الرجل:

– ومن أنت حتى يحترمك القانون؟!

انتزع الرجل الحقيبة السوداء من عدنان بشدة، ثمَّ قال له بصوت حاول أن يزينه برائحة الرأفة:

– أخرج كلَّ ما معك، وسأعطيك المقدار المسموح به فقط وأتركك تمضي، ولكن إذا تكلمت بكلمة أخرى فستأتي معي، ولا أضمن لك أن ترى النور بعدها.

أخرج عدنان ظرفًا مِنْ جيب معطفه وأعطاه إيَّاه في استسلام، وهو يقول:

– لا داعي .. لا داعي، هذا كل ما معي.

قرب الرجل الجهاز من جسمه وأخذ يمسح به محاذيا لملابسه، حتى أصدر صفيرا ضعيفا بمحاذاة جيبه الخلفي، فلمعت عيناه وقال بهدوء مصطنع:

– يبدو أنَّك تخفي بعض المال. ألا تريد أن ترجع إلى بيتك؟!!

أجاب في هلع:

– لا .. لا .. هذه بعض العملات المعدنية نسيتها، اعذرني فأنا مضطرب قليلا، هذه أول مرة أتعرض فيها لموقف كهذا.

– لا بأس لكن تأكد أنك لم تنس شيئا آخر.

– آه .. تذكرت، ثمة بضعة مئات لففتها ووضعتها في جوربي خوفًا من اللصوص، أنت تعرف اللصوص ينشُلون الكحل من العين.

أكمل الرجل الغليظ مسح ملابس عدنان بجهاز كشف الأموال، لم يصدر الجهاز صفيرًا آخر، لكنه سأله بطريقة تقليدية:

– هل لديك أية أموال أخرى؟

– لا

بدأ يجري بعض العمليات الحسابية على الجهاز، ثم عدَّ ورقاتٍ يسيرة وأعطاها لعدنان قائلا:

– هذا حقك، واحمد الله أنَّك لم تقع في يد غيري، وإلا لكان احتجزك وأحالك إلى الجهات المسؤولة، وإياك أن تفكر في حيازة مقدار من المال لا يسمح به القانون مرة أخرى، أتفهم.

– أجل أفهم أفهم!!

انصرف عنه الرجل الغليظ، فجعل ينظر إليه وهو يبتعد عنه متمتما وقد اغرورقت عيناه بالدموع: الحمد لله! الحمد لله!

***